افتراق الأمة

قال رسول الله ﷺ: «**افترقت اليهودُ على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقتِ النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**».

وهذا الحديث قد رواه أبو داود والترمذي والحاكم وأحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، وأبو يعلى في مسنده من طرق عن أبي هريرة؛ وذلك من رواية محمد بن عمرو بن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال عنه الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»[1] ووافقه الذهبي. ومحمد بن عمرو هذا حديثه يحتج به، وهو من قبيل الحديث الحسن، وبهذا الحديث مما قبله العلماء واحتج به الفقهاء فهو من قبيل الحديث الحسن.

وورد أيضاً من طريق أخرى صحيحة قوله عليه الصلاة والسلام: «**ألا إن مَن قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجَمَاعة**»[2].

وهذا هو أثبت ما روي في ألفاظ هذا المعنى، وكل ما كان غيره من

---

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، المكتب الإسلامي، حديث برقم (203).

(2) السابق: ص14 وما بعدها من المجلد الثالث، حديث برقم (204).

زيادات مثل رواية فيها لفظ: «قالوا: يا رسول الله، مَنْ هُم؟ قال: **الزنادقة**، وهم القدرية» فهو ليس أصل يعود عليه عند الأثبات من أهل الحديث[1].

كلام للقرطبي:

وأما ما ذكر عن هذا الحديث فقد قال القرطبي كلاماً في تفسيره حول الفرق المذكورة نرى أن ننقله للقارئ لما فيه من الفوائد:

قال أبو الفرج الجوزي، فإن قيل هذه الفرق معروفة فالجواب أنا نعرف الافتراق وأصول الفرق، وأن كل طائفة من الفرق انقسمت إلى فرق وإن لم نحط بأسماء تلك الفرق ومذاهبها فقد ظهر لنا من أصول الفرق: الحرورية والقدرية والجهمية والمرجئة والرافضة والجبرية، وقال بعض أهل العلم أصل الفرق الضالة هذه الفرق الست وقد انقسمت كل فرقة منها اثنتي عشرة فرقة فصارت اثنتين وسبعين فرقة.

انقسمت الحرورية اثنتي عشرة فرقة فأولهم الأزرقية قالوا: لا نعلم أحداً مؤمناً وكفروا أهل القبلة إلا من دان بقولهم، والأباضية قالوا: من أخذ بقولنا فهو مؤمن ومن أعرض عنه فهو مناق، والثعلبية قالوا: إن الله عزَّ وجلَّ لم يقض ولم يقدر، والخازمية قالوا: لا ندري ما الإيمان، والخلق كلهم معذورون، والخلفية زعموا أن من ترك الجهاد من ذكر أو أنثى كفر، والكوزية قالوا: ليس لأحد أن يمس أحداً لأنه لا من النجس ولا أن يؤاكله حتى يتوب ويغتسل، والكنزية قالوا: لا يسع أحداً أن يعطي مائة أحداً لأنه ربما لم يكن مستحقاً بل يكنزه في الأرض حتى يظهر أهل الحق، والشمرخية قالوا: لا بأس بمس النساء الأجانب لأنهن رياحين، والأخنسية قالوا: لا يلحق الميت بعد موته خير ولا شر، والحكمية قالوا: من حاكم إلى مخلوق فهو كافر،

---

(1) السابق: نفسه.

والمعتزلة قالوا: اشتبه علينا أمر علي ومعاوية فنحن نتبرأ من صليت، والميمونية قالوا: لا إمام إلا برضا أهل محبتنا.

وانقسمت القدرية اثنتي عشرة فرقة: الأحمرية وهي التي زعمت أن في شرط العدل من الله أن يملك عباده أمورهم ويحول بينهم وبين معاصيهم، والثنوية وهي التي زعمت أن الخير من الله والشر من الشيطان والمعتزلة وهم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا صفات الربوبية، والكيسانية وهم الذين قالوا: لا ندري هذه الأفعال من الله أو من العباد؟ ولا نعلم أيثاب الناس بعد أو يعاقبون، والشيطانية قالوا: إن الله تعالى لم أصحهما الشيطان والشريكية قالوا: إن السيئات كلها مقدرة إلّا الكفر، والوهمية قالوا: ليس لأفعال الخلق وكلامهم ذات ولا للحسنة والسيئة ذات، والزبرية قالوا: كل كتاب نزل من عند الله فالعمل به حق ناسخاً كان أو منسوخاً، والمسعدية زعموا أن من عصى ثم تاب لم تقبل توبته، والناكثية زعموا أن من نكث بيعة رسول الله ﷺ فلا إثم عليه، والقاسطية تبعوا إبراهيم بن النظام في قوله: من زعم أن الله شيء فهو كافر.

وانقسمت الجهمية اثنتي عشرة فرقة: المعطلة زعموا أن كل ما يقع عليه وهم الإنسان فهو مخلوق وأن من ادعى أن الله يرى فهو كافر، والمريسية قالوا: أكثر صفات الله تعالى مخلوقة، والملتزقة جعلوا الباري سبحانه في كل مكان، والواردية قالوا: لا يدخل النار من عرف ربه ومن دخلها لم يخرج منها أبداً، والزنادقة قالوا: ليس لأحد أن يثبت لنفسه رباً لأن الإثبات لا يكون إلّا بعد إدراك الحواس وما لا يدرك لا يثبت، والخرقية زعموا أن الكافر تحرقه النار مرة واحدة ثم يبقى محترقاً أبداً لا يجد حر النار، والمخلوقية زعموا أن القرآن مخلوق، والفانية زعموا أن الجنة والنار يفنيان ومنهم من قال لم يخلقا، والعبدية جحدوا الرسل وقالوا: إنما هم حكماء، والواقفية قالوا: لا نقول إن القرآن مخلوق، والقبرية ينكرون عذاب القبر والشفاعة، واللفظية قالوا: لفظنا بالقرآن مخلوق.

وانقسمت المرجئة اثنتي عشرة فرقة: التاركية قالوا: ليس لله عزَّ وجلَّ على خلقه فريضة سوى الإيمان به فمن آمن به فليفعل ما شاء، والسائبية قالوا: إن الله تعالى سيب خلقه ليفعلوا ما شاؤوا، والراجية قالوا: لا يسمى الطائع طائعاً ولا العاصي عاصياً لأنا لا ندري ماله ثَمَّ الله تعالى، والسالبية قالوا: الطاعة ليست من الإيمان، والبهيشية قالوا: الإيمان علم ومن لا يعلم الحق من الباطل والحلال من الحرام فهو كافر، والعملية قالوا: الإيمان عمل، والمنقوصية قالوا: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، والمستثنية قالوا: الاستثناء من الإيمان، والمشبهة قالوا: بصر كبصر ويد كيد، والحشوية قالوا: حكم الأحاديث كلها واحد فعندهم أن تارك النفل كتارك الفرض، والظاهرية الذين نفوا القياس، والبدعية أول من ابتدع هذه الأحداث في هذه الأمة.

وانقسمت الرافضة اثنتي عشرة فرقة: العلوية قالوا: أن الرسالة كانت إلى علي وأن جبريل أخطأ، والأمرية قالوا: إن علياً: شريك محمد في أمره، والشيعة قالوا: إن علياً رضي الله عنه وَصيّ رسول الله ﷺ ووليه من بعده وإن الأمة كفرت بمبايعة غيره، والإسحاقية قالوا: إن النبوة متصلة إلى يوم القيامة وكل من يعلم علم أهل البيت فهو نبي، والناووسية قالوا: علي أفضل الأمة فمن فضل غيره عليه فقد كفر، والإمامية قالوا: لا يمكن أن تكون الدنيا بغير إمام من ولد الحسين وإن الإمام يعلمه جبريل عليه السلام فإذا مات بدل غيره مكانه، والزيدية قالوا: ولد الحسين كلهم أئمة في الصلوات فمتى وجد منهم أحد لم تجز الصلاة خلف غيرهم برهم وفاجرهم، والعباسية زعموا أن العباس كان أولى بالخلافة من غيره، والتناسخية قالوا: الأرواح تتناسخ فمن كان محسناً خرجت روحه فدخلت في خلق يسعد بعيشه، والرجعية زعموا أن علياً وأصحابه يرجعون إلى الدنيا وينتقمون من أعدائهم، واللاعنة يلعنون عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وأبا موسى وعائشة وغيرهم، والمتربصة تشبهوا بزي النساك ونصبوا في كل عصر رجلاً ينسبون إليه الأمر يزعمون أنه مهدي هذه الأمة فإذا مات نصبوا آخر. ثم انقسمت الجبرية اثنتي عشرة فرقة فمنهم:

المضطرية قالوا: لا فعل للآدمي بل الله يفعل الكل، والأفعالية قالوا: لنا أفعال ولكن لا استطاعة لنا فيها وإنما نحن كالبهائم بالحبل، والمفروغية قالوا: كل الأشياء قد خلقت والآن لا أصحهما شيء، والنجارية زعمت أن الله تعالى يعذب الناس على فعله لا على فعلهم، والمنانية قالوا: عليك بما يخطر بقلبك فافعل ما توسمت منه الخير، والكسبية قالوا: لا يكتسب العبد ثواباً ولا عقاباً، والسابقية قالوا: من شاء فليعمل ومن شاء فلا يعمل فإن السعيد لا تضره ذنوبه والشقي لا ينفعه بره، والحبية قالوا: من شرب كأس محبة الله تعالى سقطت عنه عبادة الأركان، والخوفية قالوا: من أحب الله تعالى لم يسعه أن يخافه لأن الحبيب لا يخاف حبيبه، والفكرية قالوا: من ازداد علماً أسقط عنه بقدر ذلك من العبادة، والخشبية قالوا: الدنيا بين العبادة سواء لا تفاضل بينهم فيما ورثهم أبوهم آدم، والمنية قالوا: منّا الفعل ولنا الاستطاعة.

وسيأتي بيان الفرقة التي زادت في هذه الأمة في آخر سورة الأنعام إن شاء الله تعالى، وقال ابن عباس لسماك الحنفي: يا حنفي الجماعة الجماعة هلكت الأمم الخالية لتفرقها أما سمعت الله عزَّ وجل يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عِمرَان: الآية 103]، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ويكره لكم ثلاثا قيل وقال كثرة السؤال وإضاعة المال»** فأوجب تعالى علينا التمسّك بكتابه وسنّة نبيّه والرجوع إليهما عند الاختلاف وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح والسلامة من الاختلاف وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين، هذا بمعنى الآية على التمام وفيها دليل على صحة الإجماع حسبما هو مذكور في موضعه من أصول الفقه والله أعلم قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عِمرَان: الآية

103] ، أمر تعالى بتذكر نعمه وأعظمها الإسلام واتباع نبيه محمد ﷺ فإن به زالت العداوة والفرقة وكانت المحبة والألفة. والمراد الأوس والخزرج والآية تعم ومعنى فأصبحتم بنعمته إخواناً: أي صرتم بنعمة الإسلام إخواناً في الدين وكل ما في القرآن أصبحتم معناه: صرتم»[1].

شرح للمقبلي:

وننقل هاهنا كلاماً للعلامة المُقْبِلي في كتابه «العَلَمُ الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ»، ففيه فوائد في الكلام على هذا الحديث وما فيه من إشكالات؛ يقول رحمه الله: والإشكال في قوله: «**كلها في النار إلا مِلَّةً**»[2] فمن المعلوم أنهم خير الأمم، وأن المرجو أن يكونوا نصف أهل الجنة، مع أنهم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود حسبما صرحت به الأحاديث، فكيف يتمشى هذا؟

فبعض الناس تكلم في ضَعْف هذه الجملة، وقال: هي زيادة غير ثابتة، وبعضهم تأول الكلام... ومن المعلوم أن ليس المراد من الفرقة الناجية ألا يقع منها أدنى اختلاف، فإن ذلك قد كان في فضلاء الصحابة، إنما الكلام في مخالفة تُصَيِّرُ صاحبها فرقة مستقلة ابتدعها، وإذا حققتَ ذلك فهذه البدع الواقعة في مهمات المسائل، وفيما يترتب عليه عظائم المفاسد لا تكاد تنحصر، ولكنها لم تخص معيناً من هذه الفرق التي قد تَخَرَّبَتْ والتأم بعضهم إلى قوم وخالف آخرون بحسب مسائل عديدة...

إن الناس عامة وخاصةٌ، فالعامة آخرهم كأولهم، كالنساء والعبيد والفلاحين والسُّوْقَة ونحوهم ممن ليس في أمر الخاصة في شيء، فلا شك في براءة آخرهم من الابتداع كأولهم.

---

(1) تفسير القرطبي، أحمد عبد العليم البردوني، ط2، القاهرة (1372هـ) ج 4/ 159 ـ 164.

(2) هذه إحدى روايات الحديث.

وأما الخاصة فمنهم مبتدعٌ اخترع البدعةَ وجعلها نُصْبَ عينيه، وبَلَغَ في تقويتها كلَّ مبلغ، وجعلها أصلاً يَرُد إليها صرائح الكتاب والسنة، ثم تبعه أقوامٌ من نمطه في الفقه والتعصب، وربما جددوا بدعته وفرعوا عليها وحملوه ما لم يتحمله، ولكنه إمامهم المقدم؛ وهؤلاء هم المبتدعة حقاً، وهو شيء كبير ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريَم: الآية 90] كنفي حكمة الله تعالى، ونفي إقداره المكلَّفَ، وككونه يكلِّف ما لا يطاق، ويفعل سائر القبائح ولا تَقْبُحُ منه، وأخواتهن، ومنها ما هو دون ذلك، وحقائقها جميعاً عند الله تعالى، ولا ندري بأيها يصير صاحبها من إحدى الثلاث وسبعين فرقة.

ومن الناس مَنْ تبع هؤلاء وناصَرهم وقَوَّى سَوَادهم بالتدريس والتصنيف، ولكنه عند نفسه راجعٌ إلى الحق، وقد دس في تلك الأبحاث نقوضها في مواضع لكن على وجه خفي، ولعله تخيل مصلحة دنيئة، أو عَظُمَ عليه انحطاط نفسه وإيذاؤهم له في عِرْضه، وربما بلغت الأَذِيَّةُ إلى نفسه، وعلى الجملة فالرجل قد عرف الحق من الباطل، وتخبط في تصرفاته، وحسابه على الله سبحانه؛ إما أن يحشره مع من أحب بظاهر حاله، أو يقبل عذره، وما تكاد تجد أحداً من هؤلاء النظار إلّا قد فعل ذلك، لكن شرهم والله كثير، فلربما لم يقع خبرهم بمكان، وذلك لأنه لا يفطن لتلك اللمحة الخفية التي دَسُّوها إلّا الأذكياء المحيطون بالبحث، وقد أغناهم الله بعلمهم عن تلك اللمحة، وليس بكبير فائدة أن يعلموا أن الرجل كان يعلم الحق ويخفيه، والله المستعان.

ومن الناس مَنْ ليس من أهل التحقيق، ولا هيئ للهجوم على الحقائق، وقد تدرب في كلام الناس، وعرف أوائل الأبحاث، وحفظ كثيراً من غُثاء ما حصلوه، ولكن أرواح الأبحاث بينه وبينها حائل. وقد يكون ذلك لقصور الهمة والاكتفاء والرضا عن السلف لوقعهم في النفوس، وهؤلاء هم الأكثرون عدداً، والأرذلون قدراً، فإنهم لم يحظوا بخصيصة الخاصة، ولا أدركوا سلامة

العامة، فالقسم الأول من الخاصة مبتدعة قطعاً، والثاني ظاهره الابتداع، والثالث له حكم الابتداع.

ومن الخاصة قسم رابع ثُلَّةٌ من الأولين، وقليل من الآخرين، أقبلوا على الكتاب والسنة وساروا بسيرها، وسكتوا عما سكتا عنه، وأقدموا وأحجموا بهما، وتركوا تكلف ما لا يعنيهم، وكان تهمهم السلامة، وحياة السنة آثر عندهم من حياة نفوسهم، وقرة عين أحدهم تلاوة كتاب الله تعالى، وفهم معانيه على السليقة العربية والتفسيرات المروية، ومعرفة ثبوت حديث نبوي لفظاً وحكماً، فهؤلاء هم السُّنية حقاً، وهم الفرقة الناجية، وإليهم العامة بأسرهم، ومن شاء ربك من أقسام الخاصة الثلاثة المذكورين، بحسب علمه بقدر بدعتهم ونياتهم.

وإذا حققتَ جميعَ ما ذكرنا لك، لم يلزمك السؤال المحذور وهو الهلاك على معظم الأمة، لأن الأكثر عدداً هم العامة قديماً وحديثاً، وكذلك الخاصة في الأعصار المتقدمة، ولعل القسمين الأوسطين، وكذا من خفت بدعته من الأول، تنقذهم رحمة ربك من النظام في سلك الابتداع بحسب المجازاة الأخروية، ورحمة ربك أوسع لكل مسلم، لكنا تكلمنا على مقتضى الحديث ومصداقه، وأن أفراد الفرق المبتدعة وإن كثرت الفرق فلعله لا يكون مجموع أفرادهم جزءاً من ألف جزء من سائر المسلمين، فتأمل هذا تسلم من اعتقاد مناقضة الحديث لأحاديث فضائل الأمة المرحومة»[1].

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني: المجلد الثالث ص20 ـ 23.